Eurasian Journal of Researches in Social and Economics

Avrasya Sosyal ve Ekonomi Araştırmaları Dergisi

ISSN:2148-9963 www.asead.com

İbadiyye'de Hoşgörü ve Müslümanlar Arasındaki Barışa Etkisi[1]

التسامح عند الإباضية وتأثيره على السلام بين المسلمين[2]

إن من ضروريات الحياة وقد صار العالم المترامي الأطراف أشبه بقرية صغيرة، بل أصبح وبفضل التقنيات الحديثة ووسائل التواصل الاجتماعي بالإضافة إلى وسائل النقل السريعة كغرفة واحدة، إن عطس شخص في جهة ما شمته الآخر لصدى صوته المتنقل.

إن تشابك المصالح، وتداخل الحياة يحتم على الناس كافة عيشا مشتركا، وتعاونا في المجالات المختلفة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، لذلك لا بد من سيادة الخطاب الإنساني الموجهة إلى الناس كافة بغض النظر عن اللون والعرق والجنس والقومية والدين، عملا بقول الله تعالى {يَاأَيُّهَاالنَّاسُإِنَّاخَلَقْنَاكُممِّنذَكَرٍوَأُنثَىوَجَعَلْنَاكُمْشُعُوباًوَقَبَائِلَلِتَعَارَفُواإِنَّأَكْرَمَكُمْعِندَاللَّهِأَتْقَاكُمْإِنَّاللَّهَعَلِيمٌخَبِيرٌ }الحجرات13 وقد تكرر خطاب {يَاأَيُّهَاالنَّاسُ }في القرآن الكريم عشرين مرة في إشارة واضحة إلى أن اختلاف البشر في الطبائع والعقائد والأفكار والأجناس والألوان والقوميات والأعراق أمر ليس بدعيا، بل أمر كوني، ليس من شرط التباين التصادم، ولا من لزوميات الاختلاف التناحر والتصادم.

والمسلمون أمة في خضم أمم الأرض المختلفة، يبلغ عددهم ما يربو على المليار وستمئة مليون نسمة، يتوسطون العالم، ويتحكمون في كثير من مضائقه وممراته، وأرض كثير من بلدانهم خزانة ثروات العالم من الذهب الأسود، ولو أحسنوا تثمير ما بأرضهم لأمكن أن يكونوا مستودع وسلة غذاء العالم.

اختارهم الله مستودع الدين الحق، ختم بدينهم كل شريعة، وكان النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو الخاتم والجامع لشرائع من سبقه من إخوانه الأنبياء والمرسلين.

المسلمون وإن تعددت طوائفهم، وتباينت آراؤهم، واختلفت اجتهادات فقهائهم أمة واحدة.

لم يتعمد إمام من أئمتهم مخالفة نص، ولا أوصى بإتباعه، وما ظن أن ستصير أقواله الحكم الفصل، إنما كان شأن أولئك إتباع الكتاب والسنة مع اجتهادات بناء على اختلافهم في مدى حجية المصادر التبعية كالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة وسد الذرائع والعرف وشرع من قبلنا.

İsmail b. Salih el-Ağbirî,[1]

[2] **بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي لمستقبل الشرق الأوسط وتأثير المذاهب الإسلامية . المزمع إقامتها في ديار بكر بالجمهورية التركية بين 5 - 6 /2014مإعداد/ إسماعيل بن صالح الأغبري .سلطنة عمان - وزارة الأوقاف والشؤون الدينية**

إن هذا المؤتمر جاء في وقت المسلمون في أمس الحاجة إلى التسامح والتقارب فيما بينهم، فعسى ولعل هذا المؤتمر في رحاب هذه الجامعة العريقة يكون نواة لرأب الصدع، ودعوة للتعاون فيما كان فيه الاتفاق مع عذر المختلفين فيما اختلفوا فيه، ولا غرابة فإن الدولة العثمانية جامعة شتات الأمة، وظلت ردحا من الزمن صمام أمان للمسلمين كافة، رمز عزتهم، ودليل هيبتهم.

عمل الإباضية الجهد، واستفرغوا الوسع، طلبا لجمع الكلمة، ووأدا للفتن، وإماتة للشقاق والتشدد، لقد أرسل المناضل الليبي الشيخ سليمان باشا الباروني رسالة إلى الإمام نور الدين السالمي تتضمن عدة أسئلة منها ما هي الأسباب الحقيقية للفرقة بين المسلمين؟ وهل بعض أسبابها التعلق بالمذاهب أكثر من التعلق بذات الإسلام؟ وهل يمكن أن يجتمع المسلمون؟ وإن كان ذلك ممكنا فأي البقاع يمكن أن تكون أرضية مناسبة لجمع المسلمين وإذكاء روح الأخوة الإسلامية بينهم؟

فأجابه الإمام على أسئلته، وبين له أنه موافق له أن من أسباب التفرق هو التعمق في مسألة المذهبيات، وأن أنسب مكان للاجتماع إن خلصت النوايا، وتوفرت الإرادة هو مكة المكرمة مهبط الوحي (... الساعي في الجمع مصلح لا محالة، وأقرب الطرق له أن يدعو الناس إلى ترك الألقاب المذهبية، ويحثهم على التسمي بالإسلام... فإذا أجاب الناس إلى هذه الخصلة العظيمة ذهبت عنهم العصبية المذهبية، فيبقى المرء يلتمس الحق لنفسه، ... ولو استجاب الملوك والأمراء إلى ذلك لأسرع في الناس قبوله، وكفيتم مؤونة المغرم، وإن تعذر هذا من الملوك فالأمر عسير... وأوفق البلاد لهذه الدعوة مهبط الوحي... حرم الله الآمن، لأنه مرجع الكل)3

إن هذه الدعوة كانت من عالمين كبيرين إباضيين وهما الإمام نور الدين السالمي (ت 1332هـ) عالم المشرق، ومنتهى الفتوى إليه ، و العلامة سليمان الباروني (ت 1359هـ) المرجع الإباضي في شمال أفريقيا، وتحديدا في ليبيا، الذي أسس الدولة الطرابلسية.

إن تلك الدعوة منهما لم تكن وليدة ضغط خارجي، ولا نتيجة مبادرة آتية من خارج المجتمع الإباضي، فقابلا تلك الدعوة رفعا للعتب، وخروجا من مضيق الإحراج، وإنما إيمان منهما بوجوب تقوية الرابطة الإسلامية.

عالج الإباضية قضية التشدد مع الآخر، سواء أكان الآخر ينتمي للدين الإسلامي إلا أنه متأول فيما ذهب إليه من فروع العقيدة والفقه أو كان ينتمي لدين آخر وضعي أو سماوي، وكانت هذه المعالجة نظرية وعملية.

إن احترام الآخر مهما كان لونه أو عرقه أو قوميته أو فكره أو دينه هو من صميم معتقدات الإباضية، ويكفي دلالة على ذلك أنهم أجمعوا أمرهم على أنه يمكن أن يلي أمر المسلمين، ويتولى قيادتهم الأكفأ منهم سواء أكان من قريش أو العرب أو الأكراد أو الفرس أو الأمازيغ أو أي قومية أخرى، إعمالا للآية الكريمة

3- محمد السالمي، نهضة الأعيان /94.

التسامح عند الإباضية وتأثيره على السلام بين المسلمين

{يَاأَيُّهَاالنَّاسُإِنَّاخَلَقْنَاكُممِّنذَكَرٍوَأُنثَىوَجَعَلْنَاكُمْشُعُوباًوَقَبَائِلَلِتَعَارَفُواإِنَّأَكْرَمَكُمْعِندَاللَّهِأَتْقَاكُمْإِنَّاللَّهَعَلِيمٌخَبِيرٌ }الحجرات13

إن التسامح بين الناس كافة وبين المسلمين خاصة هو مما يلطف الأجواء، ويقرب بين المسلمين، ولعله يمكن أن نشير إلى مبدأ التسامح والمرونة من خلال الآتي: -

اعتبار كلمة التوحيد هي العاصم من قاصمة التكفير

إن نصوص الكتاب والسنة الصحيحة قاطعة بعدم جواز تكفير المسلم المخالف، ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول (كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) وفي ذلك الإعلان الحقوقي العالمي يوم الحج الأكبر قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا)[4] وليس من ناسخ لهذا القول والتشريع النبوي

أكد الإباضية أيما تأكيد على أن كلمة التوحيد أو ما يسمى عندهم بالجملتين تعصم الناس من الكفر ما لم ينقضها أحد بإنكار معلوم من الدين بالضرورة، كما أكدوا أنه ليس لأحد أن يمتحن مخالفا في الفكر أو المذهب أو يحاسبه على فروع تفرد بها، وله فيها أدلة بغض النظر عن قوتها أو ضعفها، لأن اعتبارها قوية أو ضعيفة قد يُختلف فيها أيضا.

ورد في رسالة الإمام عبد الله بن إباض (ت86هـ) الموجهة إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، والتي ندد فيها بمسلك نافع بن الأزرق في تكفير مخالفيه (قاتله الله، أي رأي رأى، صدق نافع لو كان القوم مشركين، كان أصوب الناس رأيا، وكانت سيرته كسيرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في المشركين، ولكنه كذب فيما يقوله، إن القوم براء من الشرك)

وفي كتاب السير والجوابات لمجموعة من علماء عمان (لا شرك في أهل قبلتنا، وأنهم موحدون غير خارجين من التوحيد)[5]

ولم يزل علماء الإباضية الأقدمين يؤكدون على أن التكفير خطر جسيم على الأمة، يجب التنبه له، والعمل على محاصرة دعاته وأهله (من أقر بالقرآن، ثم تأوله على غير تأويله، غير أنه يحاجج به، فهو عندنا من الموحدين المقرين، ما لم ينقض ما أقر به، أو يرجع، أو يكذب به، بريء من السبي والغنيمة، حُكمنا فيهم حكم أئمتنا المرداس أبو بلال (ت61هـ) وعبد الله بن يحيى طالب الحق (ت 130هـ) وأبو حمزة الشاري والجلندى بن مسعود (ت132هـ) حكموا فيهم بحكم الموحدين المقرين، ولم يسبوا ذرية، ولم يغنموا مالا، وعابوا جميع من سماهم بالشرك، واستحل منهم السبي والغنيمة، وفارقوا الخوارج)[6]

4- صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص، باب تغليظ تحريم الدماء، رقم الحديث (1679)، 1305/2.
5- مجموعة من العلماء، السير والجوابات 1// 299.
6- ن.م 1/ 314.

سئل المحقق سعيد بن خلفان الخليلي عن الذين وصفهم السائل يشبهون الله بخلقه بما يصفونه به من صفات حسية هل هم من المشركين؟ أجابه المحقق الخليلي (إياك ثم إياك أن تعجل بالحكم على أهل القبلة بالإشراك من غير معرفة بأصوله فإنه موضع الهلاك والإهلاك)(7).

علما بأن المحقق الخليلي أجاب بذلك الجواب، وكان أولئك يغزون عمان، ويحكمون على أهلها بالشرك، وكان المحقق يتولى قيادة حربهم ودفعهم عن عمان مع إمامه الإمام عزان بن قيس البوسعيدي، أي أنه لم ينفعل في فتواه ولم يساير الهوى فهو مع قتاله لهم إلا أنه التزم الشرع الشريف في فتواه.

قال العلامة نور الدين السالمي، وهو يؤكد على أن كلمة التوحيد هي الحجاب الحاجز عن تكفير المقر بها

ونحن لا نطالب العبادا فوق شهادتيهم اعتقادا

فمن أتى بالجملتين قلنا إخواننا وبالحقوق قمنا

1) الممارسة العملية في محاصرة التكفير

إن أخطر ما يواجه المجتمعات البشرية ومنها الإسلامية تكفير المخالف، وقطع صلته بالإسلام والمسلمين لمجرد اختلاف في فروع العقيدة، بل تعداه إلى التشدد والتكفير حتى إن تعلق الأمر بالاختلاف في الأمور الفقهية، وهذا الصنف من الناس الذي ابتليت الساحة المسلمة كأنه لا يعرف إلا مقولة فرعون التي حكاها الله تعالى في محكم التنزيل { قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ }غافر29 وقد اتبع الإباضية منهجا محكما في دفع موجات التشدد منذ أسلافهم، ويمكن أن نشير إلى عدد من الأمثلة على ذلك:

أ) مفارقة الإمام عبد الله بن إباض (ت86هـ) رؤوس الخوارج نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر وعبد الله بن الصفار لتكفيرهم المخالف، تناقش هؤلاء في مسألة الخروج فسمع ابن إباض دوي القراء، ورنين المؤذنين، وحنين المسبحين، فقال لأصحابه:"أعن هؤلاء أخرج؟!(...) فقرّر القعود"(8).

إن نسف دور العبادة ومراكز الذكر من مساجد وجوامع وتفجير آثار ومقامات، بدعوى كفر روادها أو وصفهم بالمبتدعة هو مما يجب معالجته، فالمخالف وإن اختلفنا معه، ولكن لا يصل الأمر إلى تكفيره.

قال الإمام عبد الله بن إباض في رسالته إلى عبد الملك بن مروان: (غير أنا نبرأ إلى الله من نافع بن الأزرق وأتباعه من الناس)9

(7) تمهيد قواعد الإيمان، 224/1.
(8) خليفات : عوض ، نشأة الحركة الإباضية، / 78.
9- مجموعة من العلماء، السير والجوابات 342/2.

ب) طرد جابر بن زيد (ت93هـ) زياداً الأعسم(ق1هـ) (10) من مجلسه العلمي، وإعلان البراءة منه، ذلك أن زياداً كان يرى شرك المخالفين، فطلبه الإمام ليقنعه بالعدول عن رأيه، فسأله ما تقول في هدي قومنا (المخالف في المذهب) أي البدن التي يبعثونها إلى مكة وينحرونها ؟ فقال: أنحرها وآكل أكبادها وأسنامها، فإنه لا هدي لهم، فقال جابر: إذن أبرأ وأخلع(11)

ج) اجتمع جماعة عند الإمام الربيع بن حبيب (ت175هـ) الذي تولى قيادة الإباضية بعد وفاة شيخه أبي عبيدة التميمي، وكانت بوادر التشبيه والتجسيم قد بدأت تلوح في الأفق ، فأراد بعض المشائخ إطلاق حكم الشرك عليهم، فأبى الربيع، وأصر أيما إصرار على عدم جواز ذلك وقال (إنما ظهر ذلك من عوامهم لا من أئمتهم، وذوي الفضل منهم)(12)، ولعل المشائخ هم أبو المؤرِج(ق2هـ) ، وشعيب بن المعروف(ق2هـ) اللذين حكما بشرك المتأول بما يوهم التشبيه في زمن أبي عبيدة شيخ الربيع، فطردهم أبو عبيدة من مجلسه مما اضطرهم إلى إعلان التوبة والرجوع إلى قول المسلمين، ولكنهم عادوا لما قالوا أيام الربيع(13)، فطردهم الإباضية من مجالسهم.

ومما اتخذه الإباضية فيما وقع من تناوش طائفي في العراق أن سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام للسلطنة قد وقف وقفة قوية ضد الأحداث التي وقعت في سامراء العراقية، وأسفرت عن تدمير مقام الإمامين العسكريين الشيعيين الحسن العسكري وعلي الهادي، والتي كان وقوعها يوم الأربعاء 2006/6/22م، وما تلاها من عمليات انتقام واقتحام للمساجد وإشعال النيران فيها، ودعا كافة المسلمين وعلى الهواء مباشره إلى ضرورة التزام الوحدة، وتجنب الانتقام، واحترام معتقدات المسلمين من مختلف الفرق والمذاهب، وكان ذلك يوم الأحد 2006/2/26م، وكان لندائه المباشر أثر طيب على السنة والشيعة.

لقد تجلت دعوة المفتي إلى الوحدة بين المسلمين عندما أصدر بيانا مفصلا ومن خلال جريدة عمان اليومية أعلن فيه وجوب التلاحم بين المسلمين، ووجوب نصرة المظلوم على الظالم، وأكد أن من أسس الإسلام وجوب الوقوف مع الحق على الباطل، وأن القتال مع من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله واجب ضد من ينكر جملة التوحيد، وأوجب نصرة المقاومة ودعمها.

جاء هذا البيان دعما للمقاومة الإسلامية في لبنان إبان العدوان على لبنان في 12/ 7/ 2006م، واستمر ثلاثة وثلاثين يوما.

---

(11) الكندي: محمد بن إبراهيم، بيان الشرع3/ 418.
(12) الوارجلاني، الدليل والبرهان 2/ 101 .
(13) الشماخي، كتاب السير 1/ 97 .

إن هذا الموقف ليس غريبا فقد اختار أهل الحل والعقد في القرن الحادي عشر الميلادي ناصر بن مرشد اليعربي إماما، فقاتل البرتغال أيما قتال، فلما أحسوا بأس الإمام طلبوا الصلح، فأبى الإمام إلا إذا رجعوا أموال الشيعة المسلوبة منهم14، كما وقع أن شيعيا انتقل للسكن والتجارة في ولاية سمائل بمنطقة الداخلية من عمان، وكلها إباضية ما عدا هذا الشيعي، فوقع اعتداء على ماله، وإذ بالإمام سالم بن راشد الخروصي، ومعه كافة العلماء ومنهم العلامة نور الدين السالمي يعلنون ما يشبه حالة الاستنفار العام من أجل المسلم الشيعي الجعفري، وتمكنوا من معرفة الجاني، وإعادة الحق إلى نصابه15

2) محاورة أهل التشدد

وهذا أمر لا بد منه، ولكن بشرط أن تتهيأ الأجواء لذلك، وتتظافر الجهود من مختلف المؤسسات والأفراد، مع الجدية في ذلك، واتخاذ وسائل الضغط على من يتبنى التكفير والتشدد منهجا، وكان جابر بن زيد (ت93هـ) مؤسس المذهب يحاور المكفرة، لعله يقنعهم بالإقلاع عن التشدد، ومما ورد في ذلك قوله لهم عند استحلالهم أموال وذراري أهل القبلة: (أليس قد حرم الله دماء المسلمين بدين ؟ فيقولون نعم، فيقول لهم وحرم الله البراءة منهم بدين ؟ فيقولون نعم، فيقول هل أحل ما بعد هذا بدين ؟ فيسكتون)(16). وكانوا يعملون جاهدين على تجنب مصادمة أي أحد من المسلمين، وقد عرف عن الربيع قوله في الخوارج:(دعوهم حتى يتجاوزوا القول إلى الفعل، فإن بقوا على قولهم فخطؤهم محمول عليهم)

إن المحاورة قد تكون علاجا ناجعا ومقدما على الحلول الإقصائية، كما أنه يمكن أن تؤتي ثمارها المرجوة بدل الحلول الأمنية إلا أن المشكلة قد تكمن في أن المتشدد، الذي ربما يدعي امتلاك الحقيقة يرفض التحاور مع من يسميهم المبتدعة أو أهل الضلال، بل لا يقبل الجلوس معهم على طاولة واحدة، بحجة النهي عن مجالسة (المبتدعة؟) والأمر بضرورة (هجرانهم؟) وعدم جواز صحبتهم إلى آخر تلك الشبه، وهذا يؤدي إلى تقطيع أوصال الأمة المسلمة، وزيادة الشقة فيما بينها.

3) ترك التنابز بالألقاب

رغم اتفاق المسلمين على عدم جواز السخرية والاستهزاء، وعدم جواز التنابز بالألقاب إلا أنه للأسف الشديد قد انحدرت الأمة الإسلامية إلى ما نُهيت عنه، وغدا قسم من أهل التشدد يلمزون المخالف لهم بصنوف الألقاب.

إن التنابز بالألقاب يوغر الصدور، ويورث الناشئة الحقد على المخالف، مما يعني سهولة وقوع الأجيال الناشئة فريسة لمخالب التشدد ، وإمكانية غسل أدمغتهم عن طريق إقناعهم بضرورة تنقية الإسلام من الشوائب والانحرافات.

14- أحمد بن سعود السيابي، الوسيط في التاريخ / 133.
15- أحمد بن سعود السيابي، وحدة الأمة في الفكر العماني /13.
(16)سيف البطاشي، إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عمان 1/ 80.

التسامح عند الإباضية وتأثيره على السلام بين المسلمين

لا ننكر أن المسلمين في أزمنة غابرة قد تراشقوا بالألقاب فيما بينهم، فهذا خارجي، والثاني ناصبي وآخر رافضي، ثم جاءت أزمنة تؤذن بتحول إيجابي إلا أنه في السنوات الأخيرة برزت على السطح تلك الألقاب، بل كانت أنكى، لأنه استتبعها تكفير واستحلال دم، فغدونا نسمع ضرورة تتويب (المبتدعة) وتأديب (القبوريين) ، ولذلك فإن التراشق بالألقاب سبيل إلى التشدد ثم التكفير.

إن دعوة الناس بما عُرفوا وأحبوا أن يُدعوا به هو من أدب الإسلام، فأحب الأسماء إلى الإباضية مسمى الإباضية، والشيعة مسمى الشيعة، والمذاهب الأربعة مسمى أهل السنة أو الأشاعرة (المالكية والشافعية) والماتريدية (الحنفية) فلماذا نميل من هذا الحسن إلى ألقاب اللمز والغمز والطعن.

إذا أراد أحد أن يميز بين قوله وقول غيره ممن يخالفه فإن الإباضية يصفون مخالفهم في بعض القضايا بقولهم عند المقارنات قال مخالفونا أو قال قومنا، ويستخدمون عبارة أهل القبلة وأحيانا يستخدمون عبارة أهل الصلاة، ولا شك أن تنشئة الأجيال على لطيف العبارة مع الموافق والمخالف يمنح الأجيال حصانة عن اعتناق التشدد.

4) إعمال منهج (المسلمون تجمعهم الأصول)
إن من وسائل محاصرة التشدد وتكفير المخالف هو إبراز المتفق عليه بين المسلمين، وهو كثير جدا مع تبرير المختلف عليه، لينشأ جيل يعذر المختلفين فيما اختلفوا فيه، من غير احتكار للحقيقة المطلقة، واتهام المخالف بالضلال المبين، جاء في بيان الشرع للعلامة محمد بن إبراهيم الكندي (ق6هـ): (فالمسلمون وإن اختلفوا في الفروع، فأصول الدين تجمعهم، وإليها ينتهون، وفروع الدين: الرأي المختلف فيه، وأصول الدين ما لا اختلاف فيه، والفروع من الأصول، ولا يخرج الفرع من أصله إذا كان ذلك الفرع منه)[17]

إن معظم من يتشددون على المخالف أو يتبنون منهج التكفير هم ممن يبالغون في إشاعة القضايا المختلف عليها، ويتجاهلون أكثر المتفق عليه.

لذلك يحرص الإباضية على التركيز على المتفق عليه دون المختلف فيه خاصة بالنسبة لعوام الناس، الذين لا يقدرون عواقب الأمور أو قد يندفعون لما فيه مضرة

(من عمل بقول من أقاويل المسلمين، وأخذ به، فقد عمل بالحق، وقال بالصدق، ولا تجوز تخطئته، فمن خطَأه في ذلك برأي أودين فقد خالف الحق، ووجبت البراءة منه(18). ويزيد الإباضية على ذلك بإيجابهم على المختلفين في الفقه ولاية بعضهم بعضاً، ولو تضادوا في الرأي، فأحل بعضهم شيئاً، وحرم بعضهم شيئاً، فعلى المحل أن يتولى المحرِم، وعلى المحرِم أن يتولى المحل، ولا يجوز الافتراق، وعلى من علم باختلافهم فهم ذلك، ولا يجوز له

17- محمد بن إبراهيم الكندي، بيان الشرع 12/3.
(18) الشقصي ، منهج الطالبين، 1/ 132 .

أن يفرق ف(الجمع بين الأضداد ها هنا حلال لازم، والتفريق بينهم ها هنا حرام وضلال)(19).

فمن أخذ بقول من أقوال المسلمين لا يعتبر هالكاً، ومن أبى إلا أن ينصب الرأي ديناً، وأعلن البراءة ممن خالفه، وادعى ذلك الرأي على الله اعتبره الإباضية متقولا على الله، لأن الله إذا تقدم في حكم لم يجعل للعباد فيه الخيار، وإذا تركهم واجتهاد الرأي جاز الاختلاف فيه بالرأي، وكان كل مؤتمناً على رأيه واجتهاده، إذا كان من أهل الرأي والاجتهاد(20). فالإباضية يرون أنه إذا تنازع أهل الرأي في مسألة من مسائل الرأي يمكن أن يأخذ المسلم بأي الآراء شاء.

فهذه قواعد ذهبية سطرها أساطين العلم ولو تمت مراعاتها في كل عصر لما وجدنا من الفقهاء من يضلل مخالفه في مسائل الاختلاف فيها واسع

قال العلامة نور الدين السالمي:

جاهلنا لا يعرف الخلافا بينهم حتى الممات وافى

وعالم بالاختلاف يمضي في السر ما يلزمه من فرض

خوفا من الجهال أن يقولوا ما لم يكن لهم به دخول

هم منعوا من أن يقول الجاهل ما لم يكن له بعلم حاصل

إن سمعوا من جاهل مقالا بغير علم أنكروه حالا

....

فما مضى قبلك لو بساعه فدعه ليس البحث عنه طاعه

سئل العلامة خلفان بن جميل السيابي(ت1392هـ) عن من قال: التقى أبو عبيدة التميمي الإباضي (ت145هـ) بعدوه واصل ابن عطاء المعتزلي(ت131هـ) فأجاب السيابي: (لا يجوز ولا يحل اللعن لأحد من أهل القبلة، وهذا لا يقوله إلا جاهل بما يلزمه وبما له وما عليه من حقوق المسلمين، لأن الموحد بالتوحيد يحرم دمه وماله وعرضه، فعلَموه إن كان جاهلا(...). لا تأكلوا لحوم المسلمين الراكعين الساجدين الحاميين للقرآن الكريم)(21). رغم أنه بين الإباضية والمعتزلة مناظرات، وإصرار الإباضية على عدم جواز القول بمراعاة الصلاحية والأصلح على الله، وأنه لا يجب على الله شيء، بل ما يفعله ما هو إلا من التفضل والتكرم لا الوجوب، وإصرار الإباضية بأن الله يحاسب على الكسب والاختيار، ومنه الخلق فقط إلا أنهم أصروا أيضا على عدم جواز التكفير.

(19) ن . م 1/ 145 .
(20) قراءات في فكر الشقصي، ط1 ، وزارة التراث والثقافة، 1424هـ/ 2003م / 5.
(21) فصل الخطاب 2/ 270- 271.

ولم تزل المساعي في مواجهة ظاهرة التشدد نشطة فقد سئل العلامة خلفان بن جميل السيابي هل يجوز التزاوج بين الإباضية والشيعة والسنة؟ أجاب: (إن الذي نعلمه من الأثر عن أولي العلم والبصر أن الأحرار الموحدين أكفاء بعضهم لبعض... والذي عليه الجهابذة الأعلام أن الحر الموحد المقر بالجملة الدائن بجميع أركان الإسلام جائز نكاحه وإنكاحه، وبذلك جاءت السنة، وعليه استقر عمل جميع الأمة)22

وقد وُجه لسماحة الشيخ سؤال حول فتاوى عدم جواز تزويج الإباضية وغيرهم؟ فاشتد نكير الشيخ على مثل هذه الفتاوى.

إن الناحية الاجتماعية، والتداخل الأسري يقوي الصلات بين المسلمين، ويلطف الأجواء، ولذلك فإن العلاقات الاجتماعية قائمة على أشدها في سلطنة عمان بين الإباضية والسنة والشيعة، بل يرعي سماحته عقود الزواج التي تبرم في حسينيات أو مجالس الشيعة، ومما يمكن التنويه به في ذات الموضوع أن سماحته كان العاقد عقد زواج شافعي على شيعية، فالعاقد إباضي، والزوج سني شافعي، والزوجة إمامية شيعية جعفرية، وهذا يمثل أوج الوحدة، ولعل ذلك يساهم في محاصرة ظاهرة التشدد، كما أن ظاهرة الزواج الجماعي التي تقترب أحيانا من الأربعين شخصا لم تعد مستغربة، وهؤلاء إباضية وشيعة وشافعية، ويرعى ذلك والعاقد عليهم سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام للسلطنة.

5) تطبيق منهج (ما يسع من كان قبلنا فهو يسعنا)

ولو سارت الأمة على هذه القاعدة، وتبنوا هذا المنهج الذي أسسه لما رأينا كثيرا من بلاد المسلمين يسودها هذا الاعتداء على المخالف في الرأي ووصفه بما لا يليق، قال العلامة أبو غانم الخراساني: سألت أبو المؤرج عن الاختلاف في الرأي؟ واختلاف السلف قبلنا في رأيهم، أليس قد يسعهم الاختلاف؟ ولم يبرأ بعضهم من بعض؟

قال: بل ذلك واسع.

قلت أي أبو غانم: فإن أخذ الناس ببعض أقاويلهم وهو خلاف لما اجتمع عليه المسلمون، هل يبرأ بعضهم من بعض أم لا؟ فقال لي مغضبا: ما حملك على البراءة يا هذا؟ إنك إليها لسريع، ما يسع من كان قبلنا فهو يسعنا23

6) المضادة في الرأي لا ترفع الولاية

إن الانطلاق من هذا المنهج المتعقل هو سبيل من سبل دفع التشدد ، لأن المسلمين متفقون في العقيدة بتصديقهم بأركان الإيمان، وجامعهم في الفقه أركان الإسلام، ومجمعون على أخلاقيات الإسلام في المعاملات، ولم يختلفوا إلا في فروع، تباينت فيها الاجتهادات، وجاز فيها التأويل، وبعضهم صار إلى قول، لأنه رأى حجية أصل من أصول التشريع الإسلامي التبعية الفرعية، وبعضهم لم يرها حجة يمكن الركون إليها، كالقياس والاستحسان

22- خلفان بن جميل السيابي، فصل الخطاب في المسألة والجواب 160/2.
23- ناصر السابعي، روائع السلف الصالح / 207.

والمصالح المرسلة وسد الذرائع والعرف وشرع من قبلنا وقول الصحابي، فهذه مما جاز فيها الأخذ والرد، والإثبات والنفي.

إن مسائل الرأي لا توجب تدابرا بين المسلمين، لذلك قال الإباضية في منهجهم: (المضادة في الرأي لا ترفع الولاية) فهي لا توجب بغضا وعداوة فضلا عن تشدد على المخالف أو تكفير له.

قال العلامة خميس بن سعيد الشقصي في منهج الطالبين وبلاغ الراغبين: (ولا يجوز تخطئة أحد من المختلفين بالرأي من علماء المسلمين، بل يلزم ونحب ولاية (أي محبة) جميعهم... وعلى العلماء المختلفين بالرأي أن يتولى بعضهم بعضا، ولو تضادوا جميعا بالرأي)[24] ولو تتبعنا كتب المذهب لوجدنا ما يمكن أن يقي الأمة مثل هذه المزالق الخطرة، وتقضي على هذه الظواهر.

7) الكف عما مضى

من الملاحظ أن المتشددين يتكئون في تشددهم وتهيج العامة على المخالف على إحياء قضايا وقعت منذ قرون غابرة، تباينت آراء المسلمين فيها، ويرى الإباضية اتخاذ تلك الأحداث وسيلة للتهييج ما هو إلا سهام لضرب وحدة المسلمين، وأنه مناف للأمة الواحدة، سئل العلامة خلفان بن جميل السيابي عن أحداث القرن الأول الهجري؟ فأجاب السائل: (أما الحسن والحسين فهما سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم وريحانتاه، وهو يحبهما، ووردت فيهما أحاديث، أما الأحداث التي جرت بين الصحابة ... فقد علمت الخلاف فيهما عند أهل مذهبك، أما القدماء فكانوا منهم المشاهد للأمر وحاضره، ومنهم من كان قريبا من ذلك، وتبلغهم الحقائق بصحيح النقل، أو برفيعة من العدول، الذين يكونون حجة عليهم في أمر الدين، فيحكمون على الناس بما شاهدوا منهم من الأحداث عيانا أو بإقرار المحدث أو بشهادة صحيحة ثابتة، هذه طرق العلم في الاعتقادات، ونحن نحسن بهم الظن، ونقول حكموا بما علموا)

كما أجاب عن رأيه في الخليفة عمر بن عبد العزيز، فأثنى عليه، وأكد (إنا نحبه) وذكر أن أخباره الحسنة قد ذاعت، وهذا الموقف هو عين موقف أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي (ت145هـ) إذ تمنى على الوفد الإباضي الذي التقى بعمر بن عبد العزيز أن لو قبل الوفد بكل ما أبداه الخليفة.

صحيح الخلاف على أشده بين الإباضية والأمويين، ولكن الإباضية يرون أن عمر بن عبد العزيز قد اختلف عن بقية بني أمية.

ويقول السالمي

وما مضى عنك لو بساعه دعه ليس البحث عنه طاعة

ولكنه إن كان للتدارس والتعلم والبحث والتمييز فلا بأس بذلك، كما نوه أن العوام ينبغي تجنيبهم تلك المسائل، مخافة إساءة الأدب

24- محمود هرموش، القواعد الفقهية الإباضية 2/ 1257.

8) الاعتدال في الفتوى

إن التشدد في الفتوى على المخالف هو مما يساهم في خدمة التشدد، وقد سلك الإباضية منهج الاعتدال مع كافة أهل الصلاة أو أهل القبلة، سئل العلامة خلفان بن جميل السيابي هل تجزي صلاة الجمعة للمسافر الإباضي عن صلاة الظهر إن صلاها خلف مخالف؟ أجاب: (إني لو أدركتها في أي موضع تقام، وخلف كل موحد لصليتها هناك، وتسقط بها صلاة المسافر من باب أولى، إذ لم يلزمه إلا ركعتان، والله أعلم)[25]

أجاز العلامة خلفان بن جميل السيابي صلاة الجمعة في السفر وخلف المخالف في المذهب رغم أن جمهور الإباضية لا يتوسعون في الإذن بإقامة صلاة الجمعة، بل يشترطون المصر والوطن وعدم الصلاة في المسافي إلا أن دواعي الوحدة بين المسلمين، ووجود أقوال مختلفة جعلهم لا يرون التشدد في الأخذ بقول من أقوال المسلمين.

أما عن موقف الإباضية من الصلاة خلف المخالف فنذكر اتفاقهم أولاً على أن الصلاة خلف الموافق أولى وأتم من الصلاة خلف المخالف، ولعل سائر المذاهب ترى هذا الرأي، فالصلاة خلف من يرى إعادة الوضوء من الحجامة أولى من الصلاة خلف من لا يرى انتقاض وضوء من احتجم، والصلاة خلف من لا يقنت في الصلاة عندهم أولى من الصلاة خلف من يقنت إلا أن القول المعوَل عليه، والمشهور عند الإباضية، هو القاضي بجواز الصلاة خلف المخالفين دون قيد، ولا شرط، وهذا رأي جمهور الإباضية سلفهم قبل خلفهم ، فهو قول وفعل الإمام عبدالله بن إباض (ت86هـ)، ومؤسس المذهب جابر بن زيد (ت93هـ)، وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي (ت145هـ)، وحجتهم في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (صلوا خلف كل بار وفاجر)(26).

وقد رأى محبوب بن الرحيل (ق2هـ) رجلاً من الإباضية صلى خلف إمام مخالف، ثم أعاد الصلاة، فلم يرتض محبوب هذا المسلك، فرجع الرجل إلى رأي محبوب(27، وقد أكد أبو المؤثر(ق3هـ) أن سيرة أسلاف الإباضية هي الصلاة خلف غيرهم من أئمة المذاهب، وأن المسلمين لا يكذِب بعضهم بعضاً، ومن برأ من المسلمين على ذلك، ونسبهم إلى الضلال والكذب، فليس بمسلم صادق الإسلام(28).

25- خلفان بن جميل السيابي، فصل الخطاب 2/ 103.

(26) صحيح الربيع، باب الحجة على من لا يرى الصلاة على موتى أهل القبلة، رقم الحديث (776)، / 197.

27() السالمي، معارج الآمال 9 / 147 .

28() الكندي: أحمد، المصنف 5 / 285 .

وقال أبو الحسن البسيوي (ق4هـ) في من يصلي وهو يمسح على الخفين، أو يرفع يديه في الصلاة (ولم نر أسلافنا يعملون ذلك، ولم نرهم يفسدون صلاة من فعله، ومن فعله لم نره يفسد صلاة من لم يفعله، إلا ما رأينا من إنكار بعضهم لبعض)(29).

وهذا عامر الشماخي (ت792هـ) يؤكد جواز الصلاة خلف غير الإباضي ولو أتى في الصلاة بأشياء غير جائزة عند الإباضي(30)، كمن رفع يديه أو يضمهما في الصلاة، أو أمّن بعد الفاتحة، لأنه متأول، ولم يأت بتلك الحركات عن هوى. والشماخي نفسه ذهب إلى عدم جواز الصلاة خلف فساق الإباضية، لأن الفاسق ترد شهادته بسبب فسقه المنافي للأمانة، والصلاة من أعظم الأمانات، فلا يلي أمرها. ولعل رأي الشماخي هو الأنسب فلئن يصلي المسلم خلف قائم على دينه من أي مذهب كان خير من أن يصلي خلف منحرف عن الإسلام يعمل بمعاصي الله، وإن ادعى أنه على المذهب الفلاني.

وبين قطب الأئمة محمد أطفيش أن سبب القول بجواز الصلاة خلف المخالف ولو رفع يديه أو قنت مع علم المأموم الإباضي بأن من عادة الإمام القنوت في الصلاة هو أن ما يفعله المخالف في صلاته يفعله بديانة ، أما المنافق من الإباضية فإن نفاقه من غير ديانة أو تأول، بل محض هوى يلزمنا إنكاره عليه، أما مخالف المذهب فلا يلزمنا الإنكار عليه، لأن ما جاء به في صلاته ليس بمنكر في مذهبه(31)، وأحسب أن في هذا الكلام بالغ الاعتدال والتسامح.

وقد سئل خلفان السيابي هل تجوز الصلاة خلف القوم(غير الإباضي) إذا حضرت، وهو عندهم في المسجد، أو في بيوتهم، وإذا صلى خلفهم هل عليه إعادة؟ الجواب : تجوز الصلاة خلف قومنا (غير الإباضي)، ولا بدل على من صلى خلفهم . كما سئل في من يقتدي بعلماء القوم (غير الإباضية) وأفاضلهم هل يأثم، لأنهم مخالفون أم لا ؟ الجواب : إن الإقتداء بأفاضل المسلمين على الإطلاق جائز مستحب في المستحبات والمندوبات من النوافل ووظائف العبادات، والخير مطلوب من كل أحد، والإقتداء في عمل البر بر، والحق يقبل ويعقل من البر والفاجر، وهو بنفسه حجة، وإنما الممنوع الإقتداء في الباطل، وخلاف المخالف لنا لا يقدح شيئاً في فروع الشريعة، وفضائل العبادات(32).

وقد سئل سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عمان هل تجوز الصلاة خلف أهل الخلاف ؟ فأجاب : إن الأصل الذي درج عليه السلف الصالح هو جواز الصلاة، بل وجوبها خلف أي واحد من أهل القبلة، قال الإمام أبو عبدالله محمد بن محبوب(ت260هـ) (وما مضى عليه أسلافنا من الفقهاء أنه لا بأس بالصلاة خلف أئمة قومنا إذا أقاموا الصلاة لوقتها، فمن خالف في ذلك كان في الصدر منه حرج، ولا تسقط ولا يته حتى يزعم أن جابراً وغيره ممن لم يروا الصلاة خلفهم بأساً ليسوا على صواب، وأنهم كانوا في ذلك على غير الحق، فإذا صار إلى هذه المنزلة استتابه المسلمون (الإباضية) من ذلك، فإن تاب

29() العوتبي، الضياء 5 / 153 .
30() الإيضاح،1 / 542 .
31() شرح كتاب النيل 2 / 218 .
32() فصل الخطاب 1 / 106 .

وترك ما اختاره من رأيه لم تسقط ولايته، وإن أصر وأدبر كان حقيقاً على المسلمبن البراءة منه(33). وهكذا يتشدد الإباضية على كل إباضي لا يرى الصلاة خلف المخالف فيجدوا في أنفسهم منه حرجا، أما إذا تجاوز ذلك بأن زعم أن أئمة الإباضية أخطأووا عندما أجازوا الصلاة خلف غير الإباضية فقد أوجبوا البراءة منه، وكل ذلك سعياً منهم إلى لم الشمل، وجمع الكلمة، ورص الصفوف، ووأد كل صوت يدعوا إلى الفرقة بين المسلمين .

هذا وقد ختم سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي كلامه بقوله : (ويؤخذ من كل ما تقدم جواز الصلاة خلف جميع أهل ملة الإسلام، إلا من يأتي في صلاته بما يخلها من غير أن يكون متأولاً، أما الحركات التي يأتي بها الإمام متأولاً فلا تضر من صلى خلفه، (وإذا علمت عن أحد بعينه عدم الالتزام في الطهارة أو غيرها فلا يجوز لك أن تصلي خلفه إلا نافلة سواء كان من أهل المذهب أو من المذاهب الأخرى)(34).

فخلاصة القول في هذه المسألة إن جمهور الإباضية يشددون على ضرورة الصلاة خلف أي مسلم ملتزم بدينه مهما كان مذهبه الذي ينتمي إليه، وإن اللاحقين منهم ليسوا بأفضل من أئمتهم المتقدمين أمثال عبدالله بن إباض وجابر بن زيد وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة الذين كانوا يصلون خلف المخالف، وإن أئمتهم ليسوا بأفضل من الصحابة الذين صلوا خلف الحجاج بن يوسف ومروان بن الحكم، فقد صلى ابن عمر خلف نجدة بن عامر إمام النجدية من الخوارج، وصلى ابن الزبير خلف نجدة، وصلى نجدة خلف ابن الزبير، وعندما سئل ابن عمر عن ذلك قال : (إذا نادوا حي على الصلاة حي على خير العمل جئنا، وإذا نادوا حي على قتل النفس قلنا لا لا)(35).

قال النووي من الشافعية (ولم يزل السلف والخلف يرون الصلاة وراء المعتزلة ونحوهم، ومنا كحتهم وموارثتهم، وإجراء سائر الأحكام عليهم)(36).

9) الفقه المقارن

إن للفقه المقارن أثرا كبيرا في التقريب بين المسلمين، فمن خلاله يعرف دليل المخالف والمستند الذي استند إليه، وبذلك لا يستغرب أحد قول المخالف ولا يستهجنه، لقد أولى فقهاء الأمة الإسلامية عامة وفقهاء الإباضية الفقه المقارن أهمية كبرى منذ وقت مبكر، وأهم كتب الفقه المقارن عند الإباضية هي:

أ. مدونة أبي غانم الخراساني.
ب. كتاب الجامع لابن بركة.
ت. موسوعة كتاب الضياء للعوتبي.
ث. موسوعة بيان الشرع لمحمد بن إبراهيم الكندي.

33() الفتاوى 1/ 226 .
(34) ن.م 1 / 228 .
35() السالمي، معارج الآمال 9 / 146 .
36() المجموع شرح المهذب، حققه محمد نجيب المطيعي، ط1، دار عالم الكتب، الرياض، 1423هـ/ 2003م، 4 / 107.

ج. أجوبة ابن خلفون.
ح. قواعد الإسلام للجيطالي.
خ. كتاب الإيضاح لعامر الشماخي(ت792هـ).
د. شرح صحيح الربيع بن حبيب للسالمي.
ذ. معارج الآمال للسالمي.
ر. شرح كتاب النيل لمحمد أطفيش.
ز. الذهب الخالص لمحمد أطفيش.
س. الوطء المحرم لأحمد الخليلي.

ش. الإيلاء لأحمد الخليلي.

ص. زكاة الأنعام لأحمد الخليلي.

ض. الفقه في إطار الأدب لأبي سرور الجامعي(معاصر).

ط. بغية الطلاب لأبي سرور الجامعي.

إن هذه المقارنات تكون أحيانا تفصيلية، فيذكر المؤلف آراء فقهاء المسلمين خاصة أئمة المذاهب، ويتجلى هذا في أجوبة ابن خلفون وكتاب شرح النيل والذهب الخالص وشرح الربيع بن حبيب وبغية الطلاب والفقه في إطار الأدب، وأحيانا تكون المقارنة إجمالية، فيورد المؤلف المسألة، ثم يعبِر عن مقارناته بقوله: قال أصحابنا ويعني الإباضية، وقال بعض مخالفينا أو قال مخالفونا، ويعني بذلك أهل السنة والجماعة. وأحيانا تكون المقارنات إجمالية وتفصيلية، وهذا واضح في كتاب الجامع(37) وكتاب الإيضاح وكتاب الضياء(38). و محمد بن يوسف أطفيش في كتابه الذهب الخالص ذكر أن رمز (الميم) يعني قول مالك، ورمز (الشين) يعني قول الشافعي، ورمز (الحاء) يعني قول أبي حنيفة، ورمز (نا) يعني مذهبنا الإباضي(39).

لقد حوت موسوعة بيان الشرع المكونة من سبعين جزءا 270أثرا لأبي حنيفة، و700 أثر لمالك بن أنس، و770 أثر للشافعي و500 أثر لأحمد بن حنبل و350 أثرا لسفيان الثوري(ت161هـ) و80 أثرا لليث بن سعد(ت175هـ) و20 أثرا لداود الظاهري.

ومن الأمثلة على الفقه المقارن عند الإباضية ما أورده محمد بن يوسف أطفيش في كتابه شرح النيل وشفاء العليل، الذي يعتبر أهم مصدر فقهي في المذهب الإباضي حيث قارن بين أقوال وآراء الفقهاء من مختلف المذاهب الإسلامية في مسألة طهر المرأة من حيضها، فقال:(وَإِنْطَهُرَتْفِيسَفَرٍوَلَمْتَجِدْمَاءًفَتَيَمَّمَتْبِمَايُتَيَمَّمُبِهِمِنْتُرَابٍأَوْغَيْرِهِفَهَلْيُبَاحُوَطْؤُهَاوَيَصِحُّ،أَوْلَايُبَاحُحَتَّىتَغْتَسِلَ؟قَوْلَانِفِيالْمَذْهَبِوَالْأَوَّلُمَذْهَبُالشَّافِعِيِّ،وَأَحْمَدَ،وَجُمْهُورِالسَّلَفِوَالْخَلَفِ،وَمَشْهُورُمَالِكٍ : الْمَنْعُ،وَقِيلَعَنْأَبِيحَنِيفَةَ :

(37) ابن بركة، كتاب الجامع 2/ 28، 103، 117، 122، 213.
(38) العوتبي، كتاب الضياء 374/5.
(39) أنظر على سبيل المثال الذهب الخالص / 147، 148، 173.

التسامح عند الإباضية وتأثيره على السلام بين المسلمين

إذَاانْقَطَعَالدَّمُلِأَكْثَرِالْحَيْضِحَلَّوَطْؤُهَافِيالْحَالِ،وَالْحَقُّبَاحَةُالْوَطْءِإذَاتَيَمَّمَتْفِيالْحَضَرِلِعُذْرٍ،وَإِنْلَمْتَجِدْالْمَاءَ وَلَامَاتَتَيَمَّمُبِهِلَمْيُبَحْوَطْؤُهَافِيمَااسْتَظْهَرَالسَّدُوَيَكْشِيُّ،وَالظَّاهِرُجَوَازُهُبِمَاتَتَيَمَّمُبِهِوَلَوْبِالْهَوَاءِ،وَإِنْوُطِئَ ثُبَعْدَتَضْيِيعِالْغُسْلِحَتَّىخَرَجَوَقْتُصَلَاةِاسْتَقْبَلَتْهَا،وَإِنْأَخَذَتْبِاشْتِرَاكِالصَّلَاتَيْنِاعْتَبَرَتْالْأَصْلَفَيَحِلُّلَهُوَطْؤُهَا،إذَا لَمْيَبْقَلَهَاإلَّاقَدْرُمَاتُصَلِّيالثَّانِيَةَ،فَقِيلَ : لَاتُحَرَّمُ،وَالْوَاضِحُأَنَّهُلَايُبَاحُلَهُوَطْؤُهَاوَلَوْضَيَّعَتْحَتَّىخَرَجَالْوَقْتُلِبَقَاءِحُكْمِالْحَيْضِمَالَمْتَغْتَسِلْ،وَلِقَوْلِهِتَعَالَى : (فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)(40)(41). وقارن أيضا بين آراء الفقهاء من مختلف المذاهب الإسلامية في من دخل المسجد في وقت قد نهي عن الصلاة فيه هل يصلي تحية المسجد أو لا، فقال: (وَمَنْدَخَلَهُوَقْتَإقَامَةِالصَّلَاةِفَلْيُصَلِّالصَّلَاةَالْمُقَامَلَهَا،وَإِنْدَخَلَهُفِيوَقْتٍلَايُصَلَّىفِيهِفَلَايُصَلِّيهِمَاعِنْدَنَاوَعِنْدَالْ حَنَفِيَّةِوَالْمَالِكِيَّةِ،وَقَالَالشَّافِعِيَّةُ : الْأَصَحُّصَلَاتُهُمَامُخَصِّصِينَالنَّهْيَعَنْالصَّلَاةِفِيتِلْكَالْأَوْقَاتِبِغَيْرِهَاعَامِلِينَبِعُمُومِ : إذَادَخَلَأَحَدُكُمْمَسْجِدًافَلْيُصَلِّهِمَاوَالْأَحْوَطُأَنْتُسَنَّصَلَاتُهُمَاللِدَّاخِلِوَلَوْتَكَرَّرَدُخُولُهُوَلَوْكَانَمِنْغَيْرِأَهْلِالْمَسْجِدِ مَالَمْيَمْنَعْمَانِعٌ،قَالَابْنُحَجَرٍ : هَذَاالْعَدَدُلَامَفْهُومَلِأَكْثَرِهِبِاتِّفَاقٍوَاخْتُلِفَفِيأَقَلِّهِ)(42). ومن الأمثلة على المقارنات التي أقامها سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي المفتي العام لسلطنة عمان أنه سئل عن اشتراك مجموعة من الناس في قتل شخص ما هل الواجب على كل شخص كفارة أو تكفي كفارة واحدة عن الجميع؟ فأجاب (اختلف العلماء إذا اشترك جماعة في القتل، كيف تجب عليهم الكفارة، فقول الجمهور ومنهم الحسن وعكرمة والنخعي ومالك والشافعي والثوري وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأصحاب الرأي، وعليه أكثر أصحابنا(الإباضية) بأن على كل واحد منهم كفارة واحدة، وقيل بالتفريق، ولا ريب أن رأي الجمهور أحوط وأسلم وأورع، لكن الفتيا إنما تبنى على الدليل الأرجح، والذي يرجح عندي في هذا بالدليل قول من أوجب على الجميع كفارة واحدة)43 وذكر الخليلي آراء وأقوال العلماء في مسألة هل الحرام يحرم الحلال، فذكر عن ابن عابدين من الحنفية قوله أن عمر بن الخطاب وابن مسعود وعمران بن الحصين وجابر وابن عباس انه قالوا بأن الحرام يحرم الحلال، وذكر عن السرخسي من الحنفية أنه قول أبي بن كعب، وساق أقوالا عن الشعبي وسعيد بن المسيب، وأنه قول أبي حنيفة، وهو الذي يقتضيه قول مالك في المدونة، وهو قول الثوري وأحمد، وعليه الإباضية قاطبة(44).

إن هذا الانفتاح في القديم والحديث من فقهاء الإباضية على كتب غيرهم من المذاهب الإسلامية ليس غريبا، لأن (مؤلفي الإباضية يأخذون العلم من أي عالم سواء أكان من أهل مذهبهم أو

(40) سورة البقرة /222.

(41) أطفيش، محمد، شرح النيل، 60/2.

(42) ن.م، 9/ 389.

(43) أولاد ثاني، حمود بن يحيى، التجديد الفقهي في الإفتاء العماني، /31.

(44) الخليلي، أحمد، الوطء المحرم، [د.ت]، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، / 6- 9.

مخالفا لهم، ويردون ما لا يرتضونه على أي عالم سواء أكان من أهل مذهبهم أو من غيرهم)(45).

ورد في سيرة العلامة سالم بن ذكوان (ق2هـ) ما نصه : (ونؤدي الأمانة إلى من استأمننا عليها من الناس كلهم من قومنا أو غيرهم) (ونوفي بعهود قومنا (المذاهب الأخرى)) (ونجير من استجارنا من قومنا) (ونرى مناكحة قومنا وموارثتهم لا تحرم علينا ما داموا يستقبلون قبلتنا) (ولا نرى أن نقذف أحدا ممن يستقبل قبلتنا... فإن كثيرا من الخوارج يستحلون في دينهم قذف من يعلمون أنه بريء من الزنا من قومهم46) (ولا نرى انتحال الهجرة من دار قومنا) (ونرضى من ملوك قومنا أن يتقوا الله) (ونرضى من الخوارج أن يتقوا الله، ولا يغلوا في دينهم) (ونرضى من سائر قومنا أن يتقوا الله ربهم) فالخلاصة: (لا يقتلون ذرية قومهم، ولا يستحلون فروج نسائهم، ولا يقطعون الميراث منهم، ويؤدون الأمانة إليهم وإلى غيرهم، ويوفون بعهودهم ومن غيرهم، ويأمن عندهم الكاف والمعتزل من قومهم)47 ورغم أن الشيخ الرئيس تلقى رسالة خطية من أحد المكفرة، يدعوه إلى الدخول في فكره، لكن الشيخ تعقل في الرد عليه، وإنما اكتفى بدعوته بالرجوع إلى الكتاب والسنة، ودعاه إلى التأمل في صنيع الصحابة عندما تقاتلوا في صفين والجمل، فإنه لا سبي ولا غنيمة، وحذره من أن يسلكوا مسلك نافع بن الأزرق حين استباحوا الدماء والأموال بتشريك أهل القبلة48.

لقد تشدد الشيخ على من يكفر المسلمين، وهو أمر للأسف لم تزل تعاني منه الأمة الإسلامية رغم الأخطار المحدقة بها، وما يسببه تكفير المسلم من سفك للدماء، وشيوع عدم الاستقرار في بلادهم.

لقد توجع العلامة أبو مسلم البهلاني كما توجع الشيخ الرئيس من مسلك الفرقة والتكفير، فقال قصيدة، يرثي فيها أحوال أمته.

فيا ليت أهل الدين لم يتفرقوا وليت نظام الدين للكل جامع

لو التزموا من عزة الدين شرطها لما اتضعت منها الرعان الفوارع

وما ذبح الإسلام إلا سيوفنا وقد جعلت في نفسها تتقارع

ولو سلت السيفين يمنى أخوة لدكت جبال المعتدين المصارع

وما صدعة الإسلام من سيف خصمه بأعظم مما بين أهليه واقع

فكم سيف باغ حز أوداج دينه بأفضع مما سيف ذي الشرك باخع

(45) مجلة رسالة المسجد الصادرة عن ديوان البلاط السلطاني، العدد (111)، الصفحة 36.

46- يصعب القول بأن الخوارج تجيز قذف المخالف بالزنا وهو منه بريء، ولا ينبغي التعجل في نسبة أمور لم تثبت من خلال مراجع الفرق نفسها.

47- خميس العدوي، رؤية تاريخية /63- 66.

48- مبارك الراشدي، العلامة أبو نبهان الخروصي ومنهجه الفقهي/ 108.

التسامح عند الإباضية وتأثيره على السلام بين المسلمين

هراشا على الدنيا وطيشا على الهوى وذلك سم في الحقيقة ناقع[49].

الوساطات والمصالحة بين المسلمين

لقد سعى الإباضية عمليا وفي جميع عصورهم إلى التقريب بين المسلمين، ومحاولة وأد كل فتنة قد تطل برأسها، فها هو سليمان الباروني من إباضية ليبيا يبعث برسالة إلى إدريس السنوسي يذكره خلالها بضرورة حقن دماء المسلمين، وإيقاف شن الهجوم على العثمانيين في ليبيا، وقد أبدى السنوسي موافقته على ذلك، حقنا لدماء المسلمين(50). لأن الباروني يعتبر بقاء الدولة العثمانية عامل استقرار وصمام أمان للعالم الإسلامي(51).

وكان العلامة سليمان الباروني الإباضي يذود عن الدولة العثمانية الحنفية، باعتبارها جامعة المسلمين، ورمز وحدتهم، وحافظة كيانهم، ومجمع هيبتهم.

كما أن الإمام محمد بن عبد الله الخليلي والسلطان تيمور بن فيصل قد انتدبا الباروني عام 1343هـ للقيام بحمل رسالتين إلى ملك السعودية عبد العزيز بن عبد الرحمن وسمو علي بن الحسين شريف الحجاز، وقد اشتد القتال بينهما وبجوار البيت الحرام. فطلب الخليلي والسلطان من الملك وشريف الحجاز وقف القتال، وحقن دماء المسلمين(52). وعندما وقعت الحرب بين الملك السعودي عبد العزيز بن سعود والإمام يحيى إمام اليمن، ساء الباروني تنافس الصحف في نقل تلك الأخبار وتصويرها للحرب على أنها حرب مذهبية فكرية، وساءه أيضا انقسام الصحف إلى قسمين، إذ كانت صحف مصر وفلسطين والشام تؤكد أن النصر حليف الملك السعودي، وعلى النقيض من ذلك فإن صحف العراق كانت تتحدث عن انتصار إمام اليمن على ملك السعودية. أما الباروني فقد اعتبرها حربا مشئومة بين ملك الحجاز وملك اليمن، وناشد صحف المسلمين أن تغير لهجتها من تلك الحرب(53).

إن أعمال الباروني هذه ترجمة عملية لخطابه الذي وجهه إلى الإمام نور الدين السالمي جاء فيه: هل توافقون أن من أقوى أسباب الخلاف بين المسلمين تعدد المذاهب وتباينها؟ وعلى فرض عدم الموافقة على ذلك فما هو الأمر الآخر الموجب للتفرق؟ على فرض الموافقة فهل يمكن توحيدها والجمع بين أقوالها المتباينة، وإلغاء التعدد في هذا الزمن الذي نحن فيه أحوج إلى الإتحاد من كل شيء؟ على فرض عدم إمكان التوحد فما الأمر القوي المانع منه في نظركم، وهل لإزالته من وجه؟ على فرض إمكان التوحد فأي بلد يليق فيه إبراز هذا الأمر، في كم سنة، وكم يلزم من المال؟ فأجابه السالمي بأنه يوافقه أم منشأ الخلاف هو تعدد المذاهب، وأن هنا أسباب أخرى منه التحاسد والتباغض، ورأى أن أقرب وسيلة إلى جمع المسلمين هو ترك الألقاب المذهبية، والتسمي بالإسلام، وأن الملوك هم أول من يجب عليه السعي إلى رأب

49- أبو مسلم البهلاني، ديوان أبي مسلم /328.

(50) أبو اليقضان إبراهيم، سليمان الباروني في أطوار حياته، د. ط، الدار العمانية، مصر، 1956م، 1/ 129.

(51) ن . م 1/ 208.

(52) ن . م / 1/ 250- 251.

(53) ن . م 2/ 167.

الصدع، فإن تعذر ذلك منهم كان الأمر عسيرا، وشدد على أن أوفق البلاد لتحمل هذه الدعوة هي مكة مهبط الوحي(54). إلا أن المذاهب الإسلامية هي واقع لا يمكن تجاهله، وقد لا يكون الخلل فيها بقدر ما يكون في المنتسبين إليها، الذين تناسوا أنها مجرد طريقة ووسيلة، وليست هي الإسلام ذاته. إن المطلوب ليس إذابة المذاهب، وحمل الناس على مذهب معين، ففي ذلك تضيق لواسع، وإنما المطلوب نشر روح التسامح بين أتباع هذه المذاهب. أما اختيار مكة لمحاولة الجمع بين المسلمين ذلك أن مكة المكرمة هي قبلة المسلمين، ومهوى أفئدتهم، فيمكن لو حسنت النوايا، أن يلتقي فقهاء المسلمين وكذا الأمراء سعيا منهم للتقريب بين المسلمين. وقد تكون هذه اللقاءات دورية أو فصلية على تكون هذه الاجتماعات جدية لا شكلية، ولدى الجميع الرغبة الصادقة في التقريب بين المسلمين، وإلا فإن هناك اليوم دورا واتحادات للمسلمين، ولهذه الدار اجتماعات دورية إلا أن أثرها يبدو ضعيفا، وهذا يعود ربما لأن ما يتوصلون إليه يبقى في قاعات اجتماعاتهم دون إذاعته للناس ونشره في وسائل الإعلام، لأن العامة هم أحوج ما يكونون لرؤية علماء الأمة وهم يلتقون جديا على مائدة واحدة. وكذلك فإن دعم الحكام لهذه الخطوات يبدو أنه دون المستوى المأمول، كما أن العديد ممن يشارك في مؤتمرات التقريب وكأنه غير مؤمن بما اجتمعوا من أجله، وإنما تم حضوره لمجرد شغل مقعد الدولة التي يمثلها، لذلك تجد العامة تناقضا بين ما يصرح به بعض المشاركين في المؤتمر من ضرورة الوحدة بين المسلمين وبين ما يصدر من أولئك بعد المؤتمر من دعوات تناقض ما سبق.

ويواصل الإباضية أئمة وسلاطين العمل الدؤوب من أجل ترسيخ الوحدة الإسلامين بين المسلمين، فها هو جد السلطان قابوس تيمور بن فيصل يكلف الباروني بمحاولة الصلح بين الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود والشريف علي بن الحسين بن علي شريف الحجاز، وقد أرسل السلطان إلى الملك رسالة جاء فيها (حامل هذا هو على ما نحن عليه من الكدر، (...)فالمرجو اعتماد كلامه في هذا الصدد، فإنه الثقة الأمين، وله تفان وتضحية في كل ما يتعلق بإصلاح حال الأمة الإسلامية)(55)، وفي رسالة السلطان إلى الشريف الحجازي (حامل كتابنا هذا هو الوجيه (...)الشيخ سليمان باشا الباروني أحد علماء مذهبنا، ومن رجال الإسلام المعروفين لديكم شخصا وعملا، (...) فلا حاجة إلى التوصية إلى اعتماد ما يبديه(56).

اختار السلطان شخصية إباضية كانت تتطلع إلى اليوم الذي تشرق فيه شمس الوحدة بين المسلمين وهي شخصية الباروني، فوساطته لم تكن لمجرد رفع العتب ، بل إيمان بوجوب التضامن الإسلامي، والعمل الجاد من أجل التقريب بين المسلمين. أما الإمام محمد بن عبد الله الخليلي فقد أيد إرسال السلطان تيمور الباروني للوساطة بين الملك والشريف علي، بل إنه انتدب عنه الباروني للمشاركة والتحدث باسمه في المؤتمر الذي عقد في مصر للمصالحة بين الملك والشريف علي، حيث قال الإمام للباروني (فإننا نكلف جنابكم باسم الأمة العمانية أن

(54) جميلة الربخية، إضاءآت من دور الإباضية في توحيد الأمة/ 25- 26.

(55)الهاشمي، سعيد، غاية السلوان /46.

(56)ن.م / 47.

التسامح عند الإباضية وتأثيره على السلام بين المسلمين

تحضر هذا المؤتمر الذي سيعقد لهذا الغرض الديني السامي في مصر أو غيرها من البلاد الإسلامية)(57)، ويواصل الإباضية جهودهم في عصرنا الحالي التقريب بين المسلمين، فقد بعث الإمام محمد بن عبد الله الخليلي رسالة مباشرة إلى الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن أعرب فيها الإمام عن امتنانه وشكره للملك، ويبدي إعجابه بما قام به الملك من إصلاح للسبل من أجل تسهيل وتأمين الطرق للحجاج، (فدين الإسلام واحد، ودعوتهم واحدة)(58).وهذا كتاب آخر من الإمام إلى الملك سعود بن عبد العزيز (ندعو لكم بالنصر والتوفيق على سعيكم الجميل في توحيد كلمة المسلمين، وتكتلهم تحت لواء الإسلام، وانتسابهم إليه، ودعائهم إلى كتاب الله العزيز، (...) ومن الأمر بالمعروف السعي في توحيد كلمة المسلمين، وفي إماتة الانتساب للمذاهب، وإظهار التعصب لها، اللذين قضيا على الإسلام)(59) . ولم يكل العمانيون من الدعوة إلى الوحدة بين المسلمين، وضرورة ترك ما يفرق بينهم، فأرسل الإمام خطابا آخر إلى الإباضية في الجزائر يقول لهم فيه: (فالله الله في ما يجمع الكلمة والتآلف، ويبعد الشحناء والتخالف، ولا تكونوا كالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، فما مني الإسلام بشيء أعظم وأطم من التخالف المؤدي إلى الفشل، المنتج لانحلال القوى وذهاب الدول، وإخوانكم أهل عمان حريصون على اجتماعكم)(60).

لا شك أن إمام المسلمين محمد بن عبد الله الخليلي لا يريد دمج الناس في مذهب واحد، فذلك أمر عسير، وتضييق لواسع، وتفويت للأمة من الآثار الايجابية لاختلاف المدارك، وتباين أنماط التفكير، وإنما يعني ضرورة ترك التعصب للأئمة، الذين يصيبون ويخطئون.

التوصيات والمقترحات

1) **تغيير الخطاب الديني في مناهج التربية والتعليم والإعلام وغرس قيم التسامح في نفوس الشبيبة منذ نعومة أظفارهم وحتى آخر المراحل الدراسية.**
2) **قيام الجامعات والكليات والمعاهد الدينية بتدريس مادة المذاهب الإسلامية لبيان المتفق عليه وعرض المختلف فيه بناء على الأدلة المختلف عليها كالقياس والاستحسان وسد الذرائع والمصالح المرسلة وشرع من قبلنا، والتي لا تفسيق ولا تضليل ولا تكفير للمخالف فيها أي عرض المختلف عليه على وجه التقريب وليس على سبيل التشنيع.**

---

(57)الهاشمي، سعيد، غاية السلوان، /47.

(58)الربخية، جميلة بنت علي، دور الإباضية في توحيد الأمة، مكتبة الجيل الواعد، 1427هـ ، 2006م، /29.

(59)الربخية، جميلة، دور الإباضية في توحيد المسلمين، / 30.

(60)ن.م / 30.

3) تبني كلية الاهيات جامعة دجلة إنشاء قناة فضائية دينية تعتمد خطاب التقريب منهجا والتسامح هدفا مع حوارات وندوات تعريفية.
4) قيام منظمة التعاون الإسلامي بإنشاء قنوات فضائية دينية غايتها التسامح لتخفف من غلواء السعار المذهبي الذي تبثه بعض القنوات المتشددة.